

الوجه الآخر لدوي القوافي في ديوان "الزمن الأخضر" لأبي القاسم سعد الله

The other side of the rhymes thunder in diwan "Green Time" of Abu Al-Qasim Saadallah

د. العيد حنكة

قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي ، الجزائر
laidhenka4@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/06/12

تاريخ الإيداع: 2020/04/18

ملخص:

لقد رفع الشعر الجزائري لواء الثورة المجيدة قبل اندلاعها وخاض غمارها، وأعطى صورة جلية للأدب الرائد والفكر الطليعي وعليه عاش الشعر الجزائري تطلعا واستشرافا تخطى بهما تخوم الألفاظ لصناعة الفكر.

فكان مدويا بقوافيه دوي الرصاص، تمخضت عنه الثورة المجيدة في عديد جوانبها والتي بدورها عكست أبعادا قيمة في الاستماتة والمقاومة. أفكار قرىها الحدس الشعري وأكد هذه الحقيقة شعراء كثر. وفي طليعتهم الشاعر الجزائري الملقب بهيرودوت الجزائر "أبو القاسم سعد الله" صاحب قصيدة *برقية من الجبل* *النصر للجزائر* وديوانه الشهير <<الزمن الأخضر>>.

صنع الشاعر البطل من قصائده بطولات متحديّة، جارية، متفائلة، مشرقة الطالع ممددة الآمال. ترك ابن ولاية والوادي وفخر بلدة قمار قصائد جمّة، تذكّي النخوة وتمرر خطاب المقاومة. لقد استعرض "أبو القاسم سعد الله" ذكريات الثورة، وبعثها من أعماق التاريخ فباتت قصائد تترجم تلك الصور الناصعة لبطولة شعب حمل لواء العظمة.

الكلمات المفتاحية: الكلمات المفتاحية: الشعر؛ المقاومة؛ سعد الله؛ البطولة؛ الثورة.

Abstract:

The poetry of Algeria raised the banner of the glorious revolution before its outbreak and embarked upon it. It gave a clear picture of the pioneering literature and avant-garde thought, and accordingly, the poetry of Algeria lived with aspiration and foresight that exceeded the vocabulary of ideas.

It was loud in its rhymes, the sound of bullets resulted in the glorious revolution in many aspects, which in turn reflected valuable dimensions in the apocalypse and resistance. Ideas that were poetic intuition and confirmed by this fact many poets. In the forefront of them is the Algerian poet Al-Maqalab, Herodotus of Algeria, "Abu Al-Qasim Saadallah", who wrote a poem * Telegram from the Mountain * * Victory for Algeria * and his famous book, "Green Time".

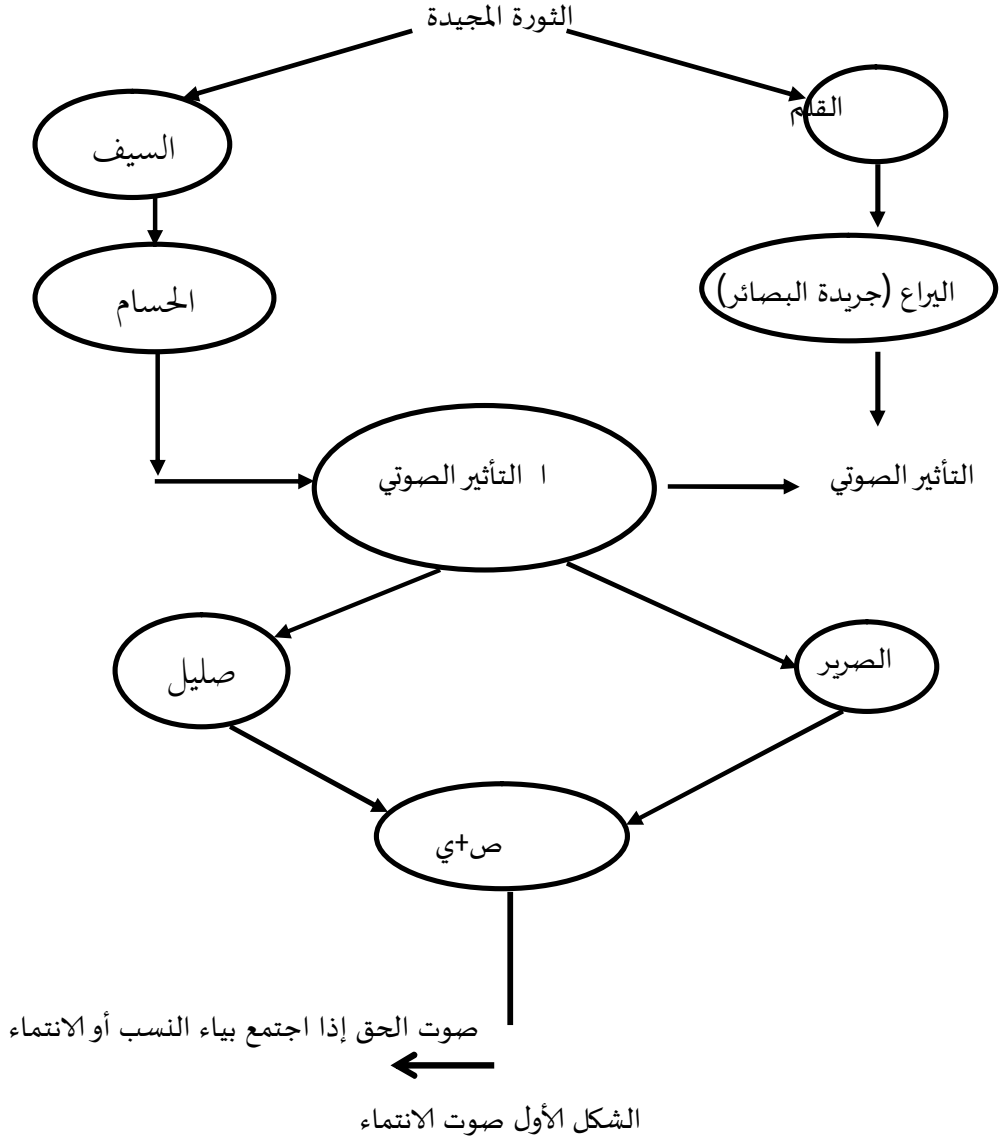
The heroic poet made his poems challenging, sweeping, optimistic, shining horoscopes with extended hopes. The son of El-Oued and the pride of the town of Guemar left many poems, fueling elitism and passing the resistance speech. "Abu al-Qasim Saad Allah" reviewed the memories of the revolution, and sent it from the depths of history, and it has become poems that translate those bright images of the heroism of a people who carried the banner of greatness

Key words: Poetry ؛ resistance ؛ Saad Allah؛ heroism؛ revolution.

لم يكن غريباً، أن يلقب الراحل "أبو القاسم سعد الله" بـ "شيخ المؤرخين الجزائريين"¹ إذ استلهمت مؤلفاته (1930-2013) مادتها الفكرية من معين التاريخ الجزائري إذ احتوت على أعمال خالدة منها: "التاريخ الثقافي"، أبحاث في تاريخ الجزائر"، الحركة الوطنية الجزائرية. ولقد نافست هذه الأعمال النثرية أعمالاً شعرية اتخذت صورة الدواوين منها: ديوان "النصر للجزائر" وهو باكورة أعماله الشعرية يحوي على اثنتي عشر قصيدة، بعدها كتب ديوان "ثائر وحب" و "الزمن الأخضر".

وهب الشاعر الجزائري حياته لتاريخ الجزائر الثقافي وتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إيماناً منه بأن يصنع من الشعر ما يقيم به ثورة مجيدة في النفوس الجزائرية، وهو جوهر الشعر الهادف.

ألم يذك النبي صلى الله عليه وسلم شاعره حسان بن ثابت رضي الله عنه بقوله "أهجم وجبريل معك"²، وكأن أبا القاسم سعد الله يريد أن يتخطى تخوم الألفاظ وقوة الحروف الناتجة عن صرير القلم -صوت اليراع الهامس- ليتبنى صوت الثورة الناتج عن صليل السيوف، وبين القلم والسيوف صورة مرئية موحية، فالمشترك الصوتي بائن، يفصح عن الصاد والياء وكلاهما يصدح في فضاء الحق، فصوت القلم والسيوف يتجلى في رفعه الغبن، وشحد الهمم، وتوجيه الأمم وتحقيق النصر، هي معان سامية ارتأينا تربيتها في الترسيمة الآتية:



مما لا مرية فيه، إرادة أبي القاسم الإحيائية التي كان يريد صنعها في كل جيل من الأجيال القادمة والتي تترجم الفكر القائم على شخصية الأمة العربية الإسلامية التي تشدّ الهمم وتساند المواقف كيف لا وهو من "قرأ القرآن، وحفظ المتون والمصنفات في النحو والصرف والفقهِ والعقائد"² وأكثر من ذلك خريج جامع الزيتونة .

لقد آمن "أبو القاسم سعد الله" بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرا"³، فالشعر ملمح للحياة الهادفة، والصوت المرافق للحق، يستفرغ فيه الشاعر همومه وآلامه بل وآماله وقضايا عصره .

هكذا أحى فينا سعد الله الثورة المجيدة من خلال ما كتبه في ديوانه "الزمن الأخضر" والذي قال عنه: "يعبر هذا الشعر عن زمنين أخضرين: عهد شبابي وعهد الثورة التي هي شباب الجزائر، فقد نظمتها في أغلبه بين سنوات 1950-1960م أحداث الثورة الجزائرية التي صادفت لحظات النضج الفكري عندي قادتي إلى دراسة ماضي الجزائر"⁴.

لم يقف الشاعر عند الثورة الجزائرية المجيدة فحسب، بل راح يمجّد تلك الثلة الخيرة -التي كانت بمثابة نبراس الأمة، ومشعل مسيرتها العلمية ورايتها الخفاقة وصوتها الهادف، ومرصد مواقفها، تتنفس من خلاله الجزائر صبح الحياة وعسعسة الليل وضحى الشمس، -إنه العلامة عبد الحميد بن باديس رحمة الله عليه.

لقد أشاد الشاعر برائد التجديد والإصلاح في الجزائر وبين مواقف النهوض عبر توجيهاته، قصيدة عنوانها بـ "نجوى العبقرية"، تتوزع على أربعة وعشرين بيتا يقول فيها:

أين ضوء الفجر في تلك الربا
سترت أنواره كف الزمان
ليتها تعلم لما فعلت
إن نبع النور طامي الفيضان
ناج روح الفيلسوف قد ثوى
عبقري الرأي جياش الجنان
أذهل التاريخ ما أحكمه
في الوجود من فنون ومبان
خالد الذكر ألا تسمعي
مكتئبا بأئسا مما دهاني
قد رآك الكون أعلى ما رآك

فجلا طالعتيك المشرقان
وعقول تائهات أصبحت
تنهل العرفان من كل مكان
أنت للجيل الجديد مرشد
أحسن التوجيه بالشرع القرآني
كنت خصبا ورواء وندى
وسموا وهدى في المهرجان
أورقت منك عقول ذبلت
وانتشت منك قلوب ومغان⁵

قصيدة شعرية أرادت أن تنقل لنا ذكرى أليمة عاشها أبو القاسم سعد الله تسجل ألم الفراق، قصيدة حزينة تبكي فقيد الوطن، وتعجل في وصف رحلته الهادفة التي كان فيها القائد الموجه بالشرع القرآني، والذائد عن الحى، والخالد بالذكرى، فكان العلامة بن باديس بمثابة التربة الخصبة التي أمدت الأجيال الصلاح وقامت بتنشئتهم تنشأة صالحة، هي قصيدة أحييت فينا قول أحد النقاد "إن الشعر -على- نحو خاص- سلسلة من الأصوات التي تتضام بقصد التأثير، ولذلك فهي توحى بالقيم أكثر مما تدل على معان محددة، ويعمد الشاعر بوعي أو بغير وعي إلى انتقاء الأصوات والتأليف بينها، بحيث توحى بالتجربة الشعورية وتجعل المتلقي يعيش أبعاد الحالة التي عاشها الشاعر إبان عملية الإبداع، فتتقل عداوة إلى الآخرين"⁶.

يساندنا في أثر الصوت على الآخر الناقد عدنان حسين قاسم عندما قال: "بلغت قناعاتي بدور الأصوات في بناء الشعر حدا اعتقدت معه بأن الشعر لعبة أصوات لأنه يوحى ولا يعبر"⁷.

أصوات البكاء والحسرة والألم تنصهر أمام هذه الالتفاتة الطيبة من شاعرنا لشخصية باديسية (الشيخ عبد الحميد بن باديس)، حيث خصه بالعبقرية وكأنه يصر على أن يبقى هذه الخصية بين النجوى والمناجاة. تارة يرسم صورة الشيخ العبقري المتواضع وتارة أخرى بناجي ذلك الأثر الذي تركه الشيخ ابن باديس غير أن النجوى -السر- التكتم، تضطلع بموازي موضوعي وهو الهمس الذي ظهر في القصيدة وهنا تستشعر بأنه الهمس المعبر عن قوة الفقد.

ويقينا من الشاعر بأن هذا الفقد قد ترك وراءه ما يخلده من أجيال سارت على نهجه، وأجيالا تربت على مبادئه يقول:

كنت خصبا ورواء ونداء
وسموا وهدى في المهرجان
وأورقت منك عقول ذبلت
وانتشت منك قلوب ومغان⁸.

ارتأى أبو القاسم سعد الله أن يصف العلامة بن باديس وصفا يليق بمقامه، فيجعل منه رمزا للعطاء والبذل كأشجار خضراء مورقة، أينما حلت نفعت، وهو الدور الذي اختص به العلامة دور محمل بثقل الأمانة الملقاة على كاهله، فكان الرجل الذي اهتدت به الأجيال في لياليها السرمدية.

أشاع كل من هوراس وأرنولد وإبيلويوت الفكرة القائلة بأن الشعر استبصار الحياة، وتحقيق الهدف، وهو ما توافق مع ما قدمه أبو القاسم سعد الله الذي لقب بالناقد الصغير تارة، وبـ "هيرودوت الجزائر" تارة أخرى، اسم تخبره الأستاذ عبد الكريم عوفي، إنه أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة وبأقلام أحبائه اللذين أيقنوا بأن الشعر رسالة، ورسالته كانت برقية النصر، برقية الثورة، برقية المجد والخلود للشهداء الأبرار.

اهتز أبو القاسم سعد الله لصوت الثورة المجيدة، وحاول أن يبعث الصناديد لاحتضان هذا الصوت وإشاعته في الجبال والقرى والمداشر، وهو ما كان فعلا، صوت الكفاح الجزائري نسמע في قصيدة الطين:

يا أخي الضارب في دنيا الكفاح
أيها الساخر من عصف الرياح
يا ابن أمي، أيها الدامي الجراح
لا تودع، وابشر بإشراق الصباح
فالغد المنشود خفاق الجناح
قلت للأرض التي فيها رفات أبويا

لم نحن خلقنا هكذا طينا دنيا؟

نمسح الدمع ونمضي دائما شعبا دنيا

قالت الأرض كلاما لم يكن إلا دويا

دفن الذل أناسا قبلكم بين يديا⁹

أشاد الشاعرها هنا بقوة التمسك بالثورة والكفاح وحاول أن يبعث رايات البشائر خفاقة، لتلهم الشعب الثائر آمال النصر والاستقلال.

خطاب شعري قرر فكرة الانتماء والانتساب للوطن الواحد، فحذف تلك الخطوط والروابط التي تحكم الشاعر عن غيره، فلجأ إلى صلة القرابة كروابط متينة تشد الشاعر بعضد أخيه "يا ابن أمي"، لتتموقع الأنا الذائدة عن الوطن داخل الجماعة (الشعب الجزائري المكافح).

رفع الشاعر من شأن الثوار والأرض الطيبة، وزكى الثورة المجيدة الخالدة متهجما في الوقت ذاته على الكولونيالية بكل ما اقترفته.

إنها رغبة سعد الله "الجامحة في تجاوز اللحظة الراهنة واستشراف المستقبل، فالأديب ليس عرافا ولا منجما، لكنه إنسان قد أوتي من الحس والحدس والتركيبية المزاجية والثقافية الخاصة ما يجعله يتفرد عن غيره، تظل إحدى قدميه في الواقع، والأخرى في المستقبل، يستشرف آفاقه ويتنبأ ببعض ما فيه"¹⁰.

راح أبو القاسم سعد الله يقسم في صمت على الثأر من تلك الممارسات الفرنسية التعسفية في حق شعب أعزل.

قسم راح يلوح بنصر الثوار، فارتفعت زغاريد الحرية وكانت الشعارات خفاقة في سماء الجزائر "نصربانت مضرب مثل في المحافل الدولية"¹¹.

نحو "تحقيق آمال في الاستقلال والحرية، ولم تكن ثورة نوفمبر إلا الانفجار التلقائي"¹²، الذي وجه للعدو مباشرة.

يقول أبو القاسم سعد الله:

أقسمت بالدم والسعير

أقسمت بالروح المقدس والعبير
وبشعري الشعث الضفير
أقسمت بالجبل الأشم
أقسمت بالحزن الشواهد والقباب
وبكل نجم سامر
وبكل ليل دامس
وبكل فجر غامر
وبكل يوم عابس
وبكل وشم أخضر
وبكل مسجد أحمر
وستعرفون يا غاصبين
من هي قاهرة الرجال
من هي معجزة الخيال
من هي سيدة الشمال
من هي كاهنة الجبال
وستعرفون
يا غاصبين
كيف الصراخ الصاخب
كيف العذاب الواصب
كيف القتال الحاطب
كيف الوجود اللاهب¹³

يسعد كثيرا شاعرنا بهذا القسم، فيحاول من خلاله أن يفتح عيوننا على "أرض قد مزقتها
الخناجر، وعلى شعب أثخنه الجراح، فراحوا في انتاجهم يجمعون الممزق منها، ويستبدلونها
بخيوط الشمس، ويضمدون الجراح، ويحولون دمائها ثمرة حب وأمل، غير أن الشمس كانت

أقوى من الشعب الذي ينسجون له تلك الخيوط، والثمرة كانت أعتى من العواطف، فكان ذلك هو مصدر ثورتهم¹⁴.

وعليه فالجزائر بشعبها تقتل الأندال، وتعجز الخيال، وتتسيد البلدان، أنها صوت الحق في الأرض، صوت السيوف والشهداء، صوت التكبير والتهليل لقد آمن الشعب الجزائري بنصر الله ووعدده،

فبذل "كل غال ونفيس من أجل عزة الجزائر"¹⁵. كفاح كفاح الأبطال فكلل ما فعل بالنصري قول شاعرنا عن هذا الكفاح المسلح في قصيدته "الثورة":

كان حلما واختمارا

كان لحنا في السنين

كان شوقا في الصدور

أن نرى الأرض تثور

أرضنا بالذات أرض الثائرين

أرضنا المغلولة الأعناق من قرن مضى

كان حلما، كان شوقا، كان لحنا

غير أن الأرض ثارت

والهتافات تعالت

من رصاص الثائرين

والكتافات تهاوت

مثلما تهوى الظنون¹⁶

حققت الثورة المجيدة كما أكد الشاعر أحلام اليتامى وصرخات الثكالي، وأصوات الجوعى، ثار الشعب وألهم بثورته النصر إنهم صنائيد الجزائر منحوا الاستقلال وأخرجوا الغاصب من أرض الشهداء الطاهرة.

دوت القوافي مرة أخرى، لتفصح عن الوجه الآخر للثورة المجيدة إنه وجه النصر الذي استلزم مرافقة اليراع للسيف بصوتين متضادين فهمس القلم وجهر السيف يصنعان معادلا موضوعيا للحياة الهادفة.

هكذا ارتأى شاعرنا "هيرودوت الجزائر" أن تعبق رايات الوطن برائحة الحرية، وبألوان الاستقلال في رائحة من روائعه، والموسومة "بالتأثر المقدس" إذ يقول إنها:

يا بلادا خضب النصر ثراها.
أوقد الشعلة فالكل وراها.
كتلة لن يفهم الظلم عراها.
ثأرنا الدامي دليل لسراها

لا حياة لدخيل عن ترابي¹⁷.

تواشجت الحروف مرة أخرى، لتصنع المعجزة وتكسر شوكة العدو، فتوحي بشرف النصر، أصوات تخيرها شاعرنا البطل في غمرة لهيب الثورة الجزائرية، صور تخطفتها ألسنة شعرية ملتزمة بقول الشاعر:

و حين هبت الجموع.
ولوحت بأذرع ... بنادق ... دروع.
وأقسم العملاق أن يكون.
أولا يكون.
تمزقت أو هام الأمس.
وانجلى الضباب.
وعاد من ضياعه أنسانا المفقود.
وبشرت بمولده المصير الحر.
صرخة السياط والقيود¹⁸.

يقول نجيب بن خيرة: إن أقل ما يجب على الأمة لمن عاش حياته مجاهدا في سبيلها، مسبحا باسمها، مدونا لتاريخها، حافظا للسانها، ذائدا عن حياضها، مدافعا عن حقها، أن تجعل يوم وفاته أحد أيامها الخالدة، تهرع فيه إلى تمجيد ذكره، وإعلاء قدره، فتستطيب الحديث عنه، وتستلمح سيرته، وتجعل أجيالها تحفظ صورته، وعبونا تقتني آثاره، فالأمم الكبيرة تكبر بقدر ما تجل عظماءها، وتعلي من قدرهم، وتكرم مثوهم، هي التفاتة طيبة أكدها نجيب بن خيره في كتابه الموسوم بـ"أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة".

هكذا وهب الشاعر الجزائري، وشيخ التاريخ حياته للوطن، كان نبراسا وسراجا وهاجا، أنار دروب الماضي، وحث على مواصلة الكفاح، فجاءت مؤلفاته دررا تشهد على فكره الثاقب المعطاء.

وحبه اللامشروط للأرض وللعباد، ألف رحمة على روح شاعرنا أبو القاسم سعد الله، شهيد القلم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، لبنان ط1، 2002.
- 2- محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة دار هومة، الجزائر، (دت)، ج.3.
- 3- أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر (دت).
- 4- عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نثر الشعر العربي، دار العربية للنشر، مصر، ط1، 2001.
- 5- محمد عبد الحميد خليفة: جبروت الرواية (دراسات تطبيقية في قدرتها الاستشراافية وتقنياتها الفنية)، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2014.
- 6- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 7- مصطفى بيطام: الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954-1962)، دراسة موضوعية فنية، ديوان
- 8- إبراهيم مياسي: اقتباسات من تاريخ الجزائر، دار هومه، الجزائر، 2010.
- 9- أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري، الحديث دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007.
- 10- الأدب الجزائري و"أعلاج" العثمانيين، مجلة القدس العربي، الصادرة بتاريخ 3 سبتمبر، 2016.

هوامش البحث

¹ الأدب الجزائري و"أعلاج" العثمانيين، مجلة القدس العربي، الصادرة بتاريخ 3 سبتمبر، 2016.

[HTTPS://www.alquds.co.uk](https://www.alquds.co.uk)

¹ محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، لبنان ط1، 2002، رقم الحديث 6153، ص 1535

² محمد الحسن فضلاء: من أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة دار هومة، الجزائر، (دت)، ج.3، ص 11 وما بعدها

³ محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري ، رقم الحديث 6145، ص 1537

⁴ أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص7 من مقدمة الديوان .

⁵ الزمن الأخضر: "قصيدة نجوى العبقريّة"، ص 77.

⁶ ينظر: عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نثر الشعر العربي، دار العربية للنشر، مصر، ط1، 2001، ص 169، 171، 172.

⁷ المرجع نفسه، ص 172.

⁸ الزمن الأخضر، ص 77.

⁹ الزمن الأخضر، قصيدة الطين، ص 209-210.

- ¹⁰ محمد عبد الحميد خليفة: جبروت الرواية (دراسات تطبيقية في قدرتها الاستشراافية وتقنياتها الفنية)، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1، 2014، ص07، ص10، الجزائر، 2010، ص198.
- 11 إبراهيم مياصي: اقتباسات من تاريخ الجزائر، دار هومه، الجزائر، 2010، ص198.
- ¹² أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري، الحديث دار الرائد للكتاب، الجزائر، ط5، 2007، ص25.26.
- ¹³ الزمن الأخضر، قصيدة (غضبة الكاهنة) ص133.
- ¹⁴ أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص145.
- ¹⁵ مصطفى بيطام: الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي (1954-1962)، دراسة موضوعية فنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، 1998، ص72.
- ¹⁶ الزمن الأخضر: قصيدة (الثورة)، ص179.
- ¹⁷ الزمن الأخضر، قصيدة (الثأر المقدس)، ص133.
- ¹⁸ الزمن الأخضر: ص357-358.